

مقاربة سيكوباتولوجية للهجرة السرية للمرأة الجزائرية

A psychopathological approach to the phenomenon of Algerian women's illegal emigration

المأحي زوبيدة*

جامعة ابن خلدون – تيارت (الجزائر) zoubida.elmahi@univ-tiaret.dz

تاريخ الإستلام: 2021/11/02 تاريخ القبول: 2022/10/28

ملخص:

تعتبر ظاهرة الهجرة غير الشرعية أحد الطرق التي يعتمد إليها الشباب للهروب من مجتمعها إلى مجتمع آخر يحظى فيه بمميزات اجتماعية واقتصادية وحتى أمنية أرقى. فقد أضحت تشكل نوعاً من الإنسحاب والتمرد والرفض للمجتمع الأصلي، متخذين في ذلك العديد من الطرق والأساليب القانونية وغير القانونية. ففي المجتمع الجزائري مثلاً، قد ساهمت مجموعة من العوامل في حدوثها، لا سيما ما مرت به الجزائر من أزمة سياسية أمنية في التسعينيات، والتي لا تزال تداعياتها إلى الوقت الراهن. كما أن هذه الظاهرة قد تفاقمت وتعمقت وتشعبت ولم تقتصر على الشباب فقط، بل امتدت لتصل إلى المرأة، والتي ما فتئت هي الأخرى تبحث عن الطرق السهلة والريح الوفير والسريع، والذي ستجده -حسبها- في الهجرة إلى الخارج وإلى أوروبا على وجه الخصوص من أجل تحقيق له ذلك، حيث شرعت في استعمال كل الوسائل والطرق المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى هدفها، حتى ولو كان في ذلك هلاكها.

كلمات مفتاحية: الهجرة غير الشرعية؛ الاغتراب؛ المرأة الجزائرية

Abstract

Illegal emigration is an irregular way used by people to move abroad, attracted by the higher living standards of their new environment, and the relative security it might offer them. This phenomenon has turned into a form of estrangement from one's own community, defying and rejecting it any way they can. In Algeria, for example, varied factors have contributed to the exacerbation of this occurrence, including the political and security upheavals that the country went through in the 1990s, whose repercussions are still with us today. The phenomenon has since worsened and grown large, attracting more and more people. It is also no longer limited to men only. Women are also succumbing to the siren song, lured by promises of wealth and a good and easy life in foreign lands, Europe in particular. They too are using all legitimate and illegitimate means to get there, regardless of the dangers facing them

Keywords: illegal emigration; alienation; Algerian women

1. مقدمة:

تعد الهجرة ظاهرة اجتماعية طبيعية يعود تاريخها إلى زمن بعيد، وهي سمة تميزت بها الشعوب والقبائل، حيث كان الإنسان يبحث عن المناطق التي تسمح له بالعيش والاستقرار، وعليه فإن الفرد بدأ يهاجر للبحث عن ما هو أحسن، بهدف الحصول على فرص للرقى والتقدم الاقتصادي له ولعائلته، غير أن هذا المفهوم تحول من ظاهرة طبيعية عادية إلى ظاهرة تهدد استقرار وأمن المجتمعات، وأصبحت تشكل تحديا مطروحا أمام المجموعة الدولية نظرا للمخاطر الناجمة عنها.

والجزائر كغيرها من البلدان العربية، لم تسلم من ظاهرة الهجرة غير الشرعية، وأصبحت تشكل هاجسا وانشغالا وتخوفا من السلطات، نظرا لتأثيرها على شرائح واسعة من الشباب، إلى أن وصل الأمر إلى فئة المثقفين منهم من جامعيين وإطارات...، والذين انتهى بهم الأمر إلى محاولات الهجرة على القوارب عبر البحر بحثا عن الحياة السهلة والرغيدة التي تحقق له الربح السريع، متحملين كل المخاطر والمهالك (الموت غرقا، السجن...).

ومما زاد في تفاقم هذه الظاهرة، ما مرت به الجزائر من تحولات على الصعيد السياسي والأمني، ونخص بالذكر فترة التسعينيات أو ما يعرف بالعهود السوداء، وتداعياتها التي أفرزت الكثير من المشاكل الاجتماعية، وانعدام الاستقرار والأمن، وانتشار مخيف للعديد من الاضطرابات النفسية وحتى العقلية بين جميع فئات المجتمع، ونخص بالذكر الشباب منهم ذكورا وإناثا.

نساء الجزائر أيضاً أرهقتهن الظروف الاجتماعية والاقتصادية في بلادهن، وبتن يختزن الهجرة غير الشرعية، عليهن يحظين بفرص جديدة غير الموت، إذ باتت قوارب الهجرة السرية في الجزائر لا تحمل الشبان والقصر فقط، بل إن فتيات ونساء أيضاً يسعين إلى البحث عن فرص جديدة خارج حدود بلادهن، فخلال الفترة الأخيرة، سجّلت وحدات حرس السواحل الجزائرية زيادة في عدد الفتيات اللواتي يعتقلن مع شبان على متن قوارب، وهو ما لم تعهده الجزائر من قبل، نظراً إلى الأعراف الاجتماعية التي كانت لا تتقبل إقدام الفتيات على خطوات مماثلة.

وبين تبني المرأة الجزائرية لمشروع الهجرة كمشروع حياة، وسعيها للحصول على الأوراق الإدارية التي تسمح لها بالإقامة والتنقل بحرية في البلد المضيف، عالم من المعاناة والإحباطات والآلام، وأشكال من الحرمان والفشل. هذا المشروع الذي يبدأ مشواره بالتخطيط، ثم بالتحضير المعنوي والمادي بأساليب متنوعة كتوفير بعض المال، والبحث عن تأشيرة السفر، ولأسباب متنوعة، فنجد منهم من تقدم مبالغ خيالية للحصول على تأشيرة من أجل الهجرة الأوروبية خاصة، ومنهم من تحاول تقديم طلب الحصول على تأشيرة سياحية ومن ثم ذهاب بلا رجعة، ومنهم من تبحث عن الزواج بنوعيه الرسمي أو الأبيض والذي يفتح لها أبواب الحصول على بطاقة الإقامة ومن ثم فرص العمل، بل نجد منهم من تختفي وراء الدراسات العليا المتخصصة... شأنها في ذلك شأن الشبان الجزائريين.

وعليه، ارتأينا أن نعالج هذه القضية من وجهة نظر نفسية، محاولين في ذلك الكشف عن أسباب ودوافع المرأة الجزائرية للإقبال على الهجرة غير الشرعية، واهم المعاناة والاضطرابات النفسية التي تتولد لديها فور الشروع في التخطيط لهذا المشروع، سواء نجحت محاولتها أم لم تنجح في مغادرة وطنها وأسرتها.

2. إشكالية البحث:

الهجرة غير الشرعية في معناها العام هي التسلل عبر الحدود البرية والبحرية أو الإقامة في دولة أخرى بطريقة غير مشروعة، وقد تكون الهجرة في أساسها قانونية وتتحوّل فيما بعد إلى غير شرعية، وهو ما يعرف بالإقامة غير الشرعية. وتتضمن الهجرة غير الشرعية في مضمونها الهجرة السرية، وتعني الاجتياز غير القانوني للحدود دخولا أو خروجًا من التراب الوطني للدولة.

وظاهرة الهجرة السرية باتت ظاهرة عالمية، إذ تصنف في المرتبة الثالثة تبعًا لخطورتها الإجرامية بعد المتاجرة بالمخدرات والأسلحة، وقد تفاقمت في فترة ما بعد الحرب الباردة بسبب التطور التكنولوجي في ميدان الاتصال ووسائل النقل، والمراقبة الهشة للحدود، والنزاعات العرقية، ... هذه المظاهر الجديدة دفعت الناس إلى البحث عن حياة أفضل في بلدان أجنبية، وخلق أنواعًا مختلفة من الهجرة فظهرت تنظيمات وعصابات إجرامية مختصة تعرف بشبكات الهجرة السرية.

إن مصطلح "المهاجر السري" هو مصطلح قديم قدم هذه الظاهرة، إلا أنه لا يزال متداولًا حتى اليوم. غير أن المصطلح الأكثر شيوعًا الآن هو مصطلح "المحرور من الوثائق"، إذ أن الوثائق -خاصة منها وثيقة رخصة العمل- إلى عهد السبعينات كانت ضرورية للحصول على بطاقة الإقامة"، ولذلك كانت أول أشكال النضال التي قام بها المحرورون من الوثائق تعود إلى هذه السنوات. وتمثلت خاصة في تلك الإضرابات عن الطعام التي قامت بها هذه الفئة سنة 1970. ويبدو أن ظهور مصطلح المحرورون من الوثائق يعود إلى هذه الفترة. وفي عام 1980، برز أول تنظيم يمثل هذه الفئة وهو التنظيم التركي للمحرورين من الوثائق، ومن ثم بدأ استعمال المصطلح حتى في النقاشات السياسية، وخاصة حين تم القيام بحوصلة عملية تسوية أوضاع هذه الفئة سنة 1981. ولكن شيوع استعمال المصطلح لم يبدأ بشكل فعلي إلا في سنوات 1990 و1991. وذلك مع الإضرابات الكبرى عن الطعام التي قامت بها فئة المحرورين من الوثائق خلال السنوات 1991، 1992، 1996، و1998، وما تلاها من بروز الجمعيات المدافعة عن المحرورين من الوثائق". (بوعون، 2013).

إن الهجرة السرية ليست عملية بسيطة تتمثل في مغادرة الفرد لبلده من أجل الاستقرار في بلد آخر، وإنما هي سيرورة وآليات لها عدّة مراحل متداخلة ومتتالية يمرّ بها المهاجر، ولكلّ مرحلة من هذه المراحل خصوصياتها وميكانيزماتها النفسية والاجتماعية المختلفة، وتتجلى هذه الخصوصيات والميكانيزمات في ثلاث مراحل يمرّ بها المهاجر في رحلته غير الشرعية إلى بلد آخر، نبدأها بمرحلة اتخاذ قرار الهجرة، هذا القرار الذي غالبًا ما يأخذ وقتًا عند المهاجر، تتفاوت مدّته بحسب الأوضاع الشخصية والاجتماعية والسياسية التي يعيشها. فعملية اتخاذ القرار -بحدّ ذاتها- سيرورة معرفية معقّدة يُختار من خلالها تصرّف معيّن، أو فعل معيّن، من بين عدّة احتمالات ممكنة.

والجزائر على غرار البلدان الأخرى تشهد موجة جديدة من المهاجرين الذين دفعهم اليأس من التغيير والإحباط الاجتماعي إلى ركوب مغامرة غير محسوبة العواقب مع قوارب الموت، ما دفع الحكومة إلى الاستعانة بالمؤسسة الدينية لثني الشباب عن الهجرة. "ولقد احتلت الجزائر المرتبة الخامسة من بين الجنسيات الأكثر إقبالا على الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا، بمعدل 6٪ من مجموع المهاجرين الذين عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا ما بين شهري جويلية وسبتمبر 2017، وذلك حسب التقرير الصادر من مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين، ووفقا لذات المصدر فإن معدل الهجرة غير الشرعية للجزائريين نحو أوروبا، يضع الجزائر في المرتبة الخامسة بعد سوريا (15٪)، والمغرب (9٪)، ونيجيريا والعراق (7٪) لكل منهما". (<https://www.tsa-algerie.com>)

ولقد كشف "تقرير نشره المكتب المكلف بالملفات الخاصة في الرابطة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان (جانفي 2018)، عن رقم قياسي جديد في عدد المهاجرين السريين الجزائريين الذين تم إيقافهم في عرض البحر من قبل قوات خفر السواحل، عندما كانوا بصدد الهروب من البلاد والهجرة إلى السواحل الأوروبية.

وسجل إحباط السلطات الجزائرية لمحاولة أكثر من 3109 شخص جزائري الهجرة عبر البحر باتجاه أوروبا سنة 2017، من بينهم 186 امرأة و840 قاصرا، استنادا إلى الإحصائيات المقدمة من قيادة حرس السواحل التابعة للقوات البحرية، مشيرا إلى أن ما يفوق 5000 مهاجر آخر نجحوا في الوصول إلى السواحل الأوروبية، الإسبانية أو الإيطالية تحديدا، انطلاقا من السواحل الجزائرية.

وأكد التقرير أنّ شبكات الهجرة السرية التي تنشط في الجزائر تجني آلاف الدولارات من هذا النشاط، إذ لا يقل ثمن ما يدفعه كل مهاجر عن 2000 دولار أميركي، متهمًا الحكومة بالفشل في الحدّ من تزايد تدفق المهاجرين السريين من الجزائر، بسبب ما يعتبره فشل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وانتشار الفساد مع احتكار الثروة في يد فئة لا تتجاوز 10 في المائة من الأشخاص، وتجاوز نسبة البطالة 35 في المائة في أوساط الشباب".

(<https://www.alaraby.co.uk/society/2018/1/29>)

وانطلاقا من هذه الإحصائيات الرسمية، نستخلص أن المرأة الجزائرية لم تُستثن من هذه الظاهرة. ومن أجل هذا جاءت دراستنا الحالية، للإجابة على التساؤلات التالية:

- ما هي الأسباب النفسية خاصة التي تدفع بالشباب الجزائري بصفة عامة والمرأة بشكل خاص للتفكير أو التوجه نحو هجرة غير الشرعية؟
- وما هي الآثار السيكولوجية الناجمة عن هذا السلوك؟
- كيف يمكن تفسيرها من وجهة نظر نفسية سيكوباتولوجية (مرضية) بشكل خاص؟

3. أهداف البحث:

تعتبر ظاهرة الهجرة غير الشرعية ظاهرة هامة تستدعي الدراسة على المستويين العلمي والعملي. فعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع، إلا أنه لم يحظ بالكثير من البحث والمعالجة، خاصة إذا تعلق الأمر بمجال الهجرة غير الشرعية عند المرأة بشكل خاص، وانعكاسات ذلك على معاشها وصحتها النفسية بشكل خاص.

4. أهمية البحث:

إن ظاهرة الهجرة غير الشرعية هي حقيقة وواقع لا يمكن إغفاله في المجتمع الجزائري، إذ أصبحت ظاهرة عيانية واكتسحت الساحة الاجتماعية، وفرضت نفسها على الكل خاصة على فئة الشباب، الذي أصبح مهووسا بها، ويحاول تجسيدها بكل الوسائل مهما كانت العواقب، حتى ولو كان في ذلك هلاكه، وقد تخطت تداعياتها لتصل إلى المجتمع الذي أضى يفقد أهم قوة إقتصادية واجتماعية فيه، وهي فئة الشباب رجالا ونساء.

5. تحديد المفاهيم:

1.5. الهجرة: تستعمل عادة للإشارة إلى جميع التحركات، مع الافتراض الضمني بأنه سترتب عليها تغير في الإقامة أو المسكن. وهي تغير دائم في مكان الإقامة من بيئة إلى بيئة أخرى من أجل الاستقرار في البيئة الجديدة. فالهجرة إذن ترتبط بتحول في مكان الإقامة.

إن مفهوم الهجرة هو في المنطلق مفهوم ديموغرافي، إلا أن تداعياته شملت العديد من المجالات، ولا سيما الجانب الاجتماعي، فهي تعد تحول في الإقامة، وبالتالي تحول في العلاقات والتفاعلات الاجتماعية.

2.5. الاغتراب: إن مفهوم الاغتراب ارتبط بالفكر الفلسفي والديني ثم بالمجال السياسي والاجتماعي والنفسى. "ولقد استخدم من طرف "هيغل" في إطار الفلسفة الألمانية وكان يعني به الاغتراب الفكري، أي أن الفرد يجد نفسه غريبا عن الأفكار. ثم جاء بعده "كارل ماكس" ليستخدم هذا المصطلح في الجانب الاقتصادي، وذلك من خلال شعور الفرد بأنه غريب عن وسائل الإنتاج (المجال الاقتصادي)". (الطلي، 2010).

3.5. الهجرة غير الشرعية: سميت الهجرة بغير الشرعية لأنها تتم وفق إطار غير قانوني. حيث يقصد بها مخالفة التشريعات والقوانين المعمول بها في تنظيم دخول الأجانب إلى الإقليم السيادي لدولة ما. وتتضمن حركة الأفراد أو الجماعات العابرة للحدود في خارج إطار القانون، والتي ظهرت مع بداية القرن العشرين، وازدادت حدتها خاصة بعد تبني إقرار سياسات غلق الحدود في أوروبا في سبعينيات القرن الماضي.

وهي أيضا التسلل عبر الحدود البرية والبحرية والإقامة بدولة أخرى بطريقة غير مشروعة. وقد تكون الهجرة في أساسها قانونية، وتتحول فيما بعد إلى غير شرعية، وهو ما يعرف بالإقامة غير الشرعية. إذن فالهجرة غير الشرعية هي سلوك يقوم به الفرد من خلال إتباع طرق غير شرعية (التزوير، الانتقال عبر القوارب،...) أو عن طريق التحايل بطريقة شرعية، ثم تحويلها إلى طريقة غير شرعية.

وبالنسبة للتشريع الجزائري، إنه أعطى تعريفا يرتبط بالهجرة غير الشرعية ومنفذهها: "فهو كل جزائري أو أجنبي يغادر التراب الوطني بصفة غير شرعية، أثناء اجتيازه أحد مراكز الحدود البرية أو البحرية، وذلك

بانتحال هوية، أو باستعمال وثائق مزورة أو أية وسيلة احتيالية أخرى، للتملص من تقديم الوثائق الرسمية اللازمة، أو القيام بالإجراءات التي توجبها القوانين والأنظمة السارية المفعول وتطبيق نفس العقوبة، على كل شخص يغادر الإقليم الوطني عبر المنافذ أو أماكن غير مراكز الحدود". (ساعد، 2021: 10).

4.5. المهاجر: هو الشخص الذي يقوم بالهجرة.

وتستخدم كلمة مهاجر على الوافد والنازح معا. ومصطلح النزوح: يعني ترك المكان ثم الوفود. ويعني الهجرة إلى مكان ما.

فالمهاجر إذن هو الشخص الذي ينتقل من مكان إقامته الأصلية إلى الإقامة الجديدة، بهدف الاستقرار أو العمل.

5.5. الحراق: يعد هذا المصطلح جديدا، حيث ظهر في إطار تفاقم ظاهرة الهجرة غير الشرعية، أين أصبح الفرد يسعى للقيام بها مهما كانت التكاليف والتبعات التي تشكل احتراقا نفسيا واجتماعيا واقتصاديا، على جميع الأصعدة.

فالحراق هو شخص قرر الانتقال إلى دولة أخرى بمحض إرادته، وبطريقة غير قانونية، فهو يقوم بمغامرة يجتاز فيها البحر باتجاه دول أجنبية أخرى وخاصة أوروبا. وغالبية هذه الفئة (الحرقاة) هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20 إلى 53 سنة، وهم من الجنسين (ذكور وإناث). ولكن هذا لا يستثني وجود بعض القصر والكهول بينهم.

7. التحليل السيكوباتولوجي لظاهرة الهجرة غير الشرعية ومقارنتها بدراسات في نفس المجال:

أ. اسباب الهجرة غير الشرعية:

لقد حصرت العديد من الدراسات الغربية والعربية والمغاربية العديد من الأسباب المؤدية للهجرة غير الشرعية في الوطن العربي عموما، وفي الجزائر على وجه الخصوص، لدى شبابها من جهة، وعند المرأة الجزائرية من جهة أخرى. نذكر من هذه المسببات:

- يلجأ الشباب إلى هذه الظاهرة بحكم احتكاكه بجماعة أقرانه من الأصدقاء، والأهل... الخ الذين سبقوهم للمهجر، من خلال تحقيقهم لطموحاتهم خاصة المادية منها، في وقت وجيز. ولهذا فهم يغامرون في محاولات حتى وإن كانت فاشلة، بحثا عن تحقيق هذا الربح السريع، الهدف الذي لا يمكن تحقيقه في المجتمع الجزائري.

- تتظاهر مجموعة من العوامل الدافعة لانتشار وارتفاع معدلات ظاهرة الهجرة غير الشرعية، لكن في الجزائر، نجد هناك عوامل ذات تأثير عميق وكبير. وهذا ما بينته مجموع الإحصائيات والدراسات الميدانية، حيث تمثلت في العامل الاقتصادي، والعامل السوسيو أمني، وهذا ما عرفتة الجزائر خلال العشرية السوداء، والذي تسببت في تأزم الوضع الأمني، وبالتالي أصبح الهروب حول الحل الوحيد بحثا عن الاستقرار الأمني. كما أن

تداعيات هذه الظاهرة يمكن أن نلمسها أيضا في العديد من البلدان العربية التي تشهد إضطرابا في وضعها الأمني على غرار سوريا، ليبيا، مصر، العراق...

- تدهور الوضع الاقتصادي وتدني مستويات المعيشة، أظهر مجموعة من ردود الفعل القيميّة، حيث سيطر المذهب البرغماتي النفعي على التعاملات الفردية، ولا سيما فئة الشباب، حيث أصبح همهم الوحيد هو كسب المال الوفير والسريع، مهما كانت الطريقة أو الوسيلة، ولو كان في ذلك هلاكه.

- يلجأ بعض فئات المجتمع الجزائري للهروب، وفي مقدمتهم الشباب، الهروب نحو مناطق آمنة أحيانا، هروبا من أداء الخدمة الوطنية والتي اعتبرت في تلك الفترة (فترة الإرهاب) بمثابة طريق للموت.

- حيث أن الدول المصدرة تفقد طاقاتها الفعالة (الشباب) وما نجم عنها من آثار اجتماعية (تفكك، تشرد...)، وبينما الدول المستقبلية تتحمل عبء هذه الفئات، والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى انتشار الفوضى والإجرام، في ظل غياب حماية قانونية لهذه الفئة المغتربة.

- إن اعتماد الحلول الأمنية (خاصة العنيفة منها) والتي تعتمد عليها الدول المستقبلية لم تجد نفعاً، بل بالعكس زادت في تدني الأوضاع الإنسانية للمهاجرين غير الشرعيين، من خلال طبيعة المعاملة القاسية بسبب الحجز والتوقيف في المعتقلات والسجون. وبالتالي ظهرت أنماط جديدة للعنف والتطرف داخل هذه البلدان، والتي أدت إلى عدم استقرار الأوضاع الأمنية والسياسية داخلها (مثلا في أوروبا وخاصة فرنسا).

إن السياسة المنتهجة في الجزائر للحيلولة دون تفشي الظاهرة، تبقى غير فعالة سواء من حيث العقوبة لأنها أساسا هي عبارة عن تدابير احترازية، أو من حيث توفير الظروف الملائمة (أبسط الظروف للعيش). وعلى هذا الأساس تبقى تسير وفق منحى متزايد وخطير والخاسر منها هو كل من الدول المصدرة والدول المستقبلية.

ب. دراسة تحليلية سيكوباتية لظاهرة الهجرة غير الشرعية من خلال أبرز الدراسات التي تناولت هذا الجانب:

رغم قدم ظاهرة الهجرة بالجزائر إلى الضفة الأخرى لدى فئة الشباب خاصة، وحدثتها لدى المرأة على الخصوص، إلا أن الدراسات التي تمت في ميدان تناول الاضطرابات النفسية الناشئة عنها تعتبر نادرة، وهي في أغلبيتها كانت تهتم بمظاهر الاضطراب النفسي لدى المهاجرين البولونيين على الأرض الفرنسية، وذلك في بداية القرن العشرين أو في فترة ما بين الحربين العالميتين. ولقد أخذت هذه الأعمال والدراسات طابعا تاريخيا واجتماعيا، أكثر منه نفسيا مرضيا.

ونذكر من بين هذه الدراسات، دراسة Ponti (1983)، وكذا دراسة Robert, Peschanski (1991).

وعموما فإن الدراسات النفسية المرضية التي أجريت في هذا المجال، والتي وجهت اهتمامها نحو هذه الفئة من المهاجرين، تبقى نادرة وفقيرة. ومن بين هذه الدراسات يمكن ذكر "دراسة Hanna Devarenne-Megas (1993)، والتي بينت تأثير استئصال الهجرة والظروف الوجودية الصعبة للمهاجرين على بروز الاضطراب النفسي والعقلي لديهم، وأن الكثير من هؤلاء المهاجرين حصلوا على رعاية نفسية وطبية وعقلية في

مصحات مختصة... ونذكر في مجال سيكولوجية المهاجر المغاربي عدة مهتمين نذكر منهم: جليل بناني، وفتحي بن سلامة، وطار بن جلون، وماري روز مورو، وطوبى ناتان... أما فيما يتعلق بالدراسات العالمية، فيمكن ذكر دراسة Kino (1951) التي اهتمت بفئة الشباب المهاجر الذي استقر في مصحة ميدل وود ببريطانيا (Middle Wood Hospital). ومنها تمكن "كينو" من تمييز نوع الاضطراب الذهاني، والذي من ميزاته حالات من الاستثارة، وقلق مصحوب بتشويش، ونزوع نحو الشك والحذر من المحيط... كما وجد أن بعضهم يعاني أيضا من هلوسة بصرية وسمعية، ولهم أفكار هذيانية اضطهادية مع توجهات وأفكار انتحارية".

(<https://www.researchgate.net/publication/279217938>)

ومن بين الدراسات التي تناولت ظاهرة الهجرة غير الشرعية وعلاقتها بالاضطرابات النفسية، دراسة قام بها Pollok (1912) والتي بين من خلالها بأن الاضطراب النفسي والعقلي هو الأكثر شيوعا في أوساط المهاجرين مقارنة بالسكان الأصليين للمدينة. وفي (1932) بين العالم Odegaard بأن النرويجيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية هم أكثر إصابة بالاضطرابات النفسية مقارنة بالنرويجيين الذين يعيشون في النرويج. كما ظهرت دراسات أخرى حديثة، بينت أيضا أثر الهجرة والاستئصال من البلد الأصلي على بروز آثار الاضطراب العقلي لدى هؤلاء، وان الاضطرابات العقلية هي الأكثر شيوعا لدى المهاجرين، إذا ما قارناهم بإخوانهم المستقرين في وطنهم. والتي نذكر منها: "Berry و Sigal (1975)، Kim و Gasry (1987)، Toussignant (1991)، Aroian (1987). إلا أن كل هذه الدراسات يتفق عليها المختصون بأنه تنقصها الدقة والموضوعية. ففي 1977 قام العالم Murphy بالتمييز بين الباحثين الذين قدموا فرضيات عن إستعدادية المهاجرين للإصابة بالاضطراب العقلي، وبين الآخرين الذين قدموا فرضيات تعيد الاضطراب العقلي الذي يعاني منه المهاجر إلى الضغوط، التي سببتها ظاهرة الاستئصال... وهذه التناقضات التي تفسر سببية الاضطراب العقلي لدى المهاجر، تعود في جزئها الأكبر إلى الفروق بين نتائج الدراسات العيادية والأنثروبولوجية، والتي يشوبها في الكثير من الأحيان النقص في الجدية. ويمكن الإشارة هنا أيضا إلى أن الدراسات الحالية تُظهر الكثير من التركيز على الجوانب الفطرية والمكتسبة" (بوعون، 2013). أي كيف تكون هذه الاضطرابات ناتجة عن استعداد نفسي فطري هذا من جهة. أي أن الذي يفكر في الهجرة ويركب المصاعب ليترك أهله وبلده، يعاني من إستعدادية نفسية للإصابة، بينما الفرد السوي الخالي من هذه الاستعدادية، يرفض الهجرة حتى ولو أتيحت له الفرص، أو كيف تكون هذه الاضطرابات لدى البعض ناتجة عن تأثير ثقافي اجتماعي ظرفي، لا دخل فيه للاستعدادية. "ولقد ظهر نموذج جديد لا يزال في طور النمو، والذي يفضل اعتبار المهاجر كائن كُلي (بيو-نفسى-اجتماعي)، وهو بذلك يرفض كل الدراسات التبسيطية والخطية، التي تعتبر عاملا واحدا -مهما كان معزولا- سببا للاضطراب النفسي لديه. ويولي الباحثان Huxley و Goldberg (1992) هذا التوجه المتطور مكانة هامة، كنموذج جديد يحل محل النموذج التقليدي، والذي يمثل نموذجا متعدد الأبعاد، يتناول الاضطراب في أبعاده المختلفة حتى الظاهرياتية والوجودية..." (نفس المرجع السابق).

"فبالنسبة للمختصين في البحث في هذا المجال، فإنهم يعتبرون بأن الأبحاث التي أقيمت بفرنسا، في ميدان سيكوباتولوجية المهاجر، هي أبحاث ذات قيمة كيفية، عكس الدراسات التي قام بها المختصون في الولايات المتحدة وكندا، والتي اهتمت أكثر بالجانب الكمي. كما أن هذه الأخيرة تناولت ظاهرة الهجرة من الزاوية الاجتماعية فقط الخاصة بالحياة الاجتماعية للمهاجر في البلد المضيف، بينما لم تتناول المواضيع الذاتية والنفسية إلا نادرا، على غرار دراسة Kino (1951)، كوشران (1971)، Rack (1980)، Wool (1983)..." (الطلحي، 2010)، هذه الدراسات كغيرها من الدراسات المشابهة، قد طغى عليها أمرين اثنين أساسيين هما:

- كيفية قياس الظاهر والمنهجيّات التي يجب استخدامها أي كيف يمكن تقييم الأعراض المرضية لدى المصاب ذو الخلفيات المخالفة للإطار المرجعي للبلد المضيف.

- مفهوم السببية من حيث محاولة البحث عن عوامل الخطر لدى المهاجرين، ما دام هناك فروقات في ميدان الصحة العقلية والاضطراب العقلي بين السكان الأصليين وبين المهاجرين.

ففي دراسة نفسية قام بها كوشران (1971) للاضطراب المرتبط بعملية الهجرة، أين قام بتحليل المعطيات المتعلقة بدخول هؤلاء المهاجرين إلى المصحات العقلية في فترة سنة واحدة، وجد أن المهاجرين الذين دخلوا هذه المصحات، يتميزون خاصة بأعراض ذهانية كالفصام والبرانويا... وبصفة عامة، فإن النساء المهاجرات هن أكثر إصابة من الرجال المهاجرين، وهن يتميزن بأعراض متنوعة، إلا أن الدراسة ذاتها تحدثت عن تعرض الرجال لاضطرابات مرتبطة بالإدمان على الكحول، مما يعرضهم للذهانات الكحولية.

وفي دراسة Burvill (1982)، التي كشفت عن ارتفاع نسبة الإصابة بمختلف أنواع العصابات لدى النساء المهاجرات، بينما لاحظ عند الرجال نسبة عالية من الإدمان على الكحول، وكشف Mostwin (1976) في دراسته العيادية، صحة الفرضية القائلة بأن الاستئصال الذي يعاني منه المهاجر هو أصل ذلك الحصر (القلق) الذي يسبب له صعوبات متعددة في تطوير العلاقات الاجتماعية بينه وبين محيطه.

وفي دراسة Hich و Rack (1980) لاحظا أن هناك نسبة عالية من المقيمين في المصحات العقلية من المهاجرين أكثر منهم من السكان الأصليين.

كما أثبتت بعض الدراسات، إلى أن هجرة شباب المغرب العربي عموما إلى أوروبا خاصة، وفرنسا على وجه الخصوص، وبالرغم من أن المجتمع الفرنسي قد لا يطرح مشكلا بالنسبة للمغاربة، كما قد يطرحها للإيراني أو الأفغاني أو الصيني أو الهندي... إلا أن الفجوة في القيم والمعايير والسلوكات الاجتماعية، تشكل للبعض نوع من الصدمة الثقافية، والتي تحتّم عليه ضرورة إعادة تعلمه الوجودي، خاصة في مجال كيفية تنظيم مظاهر الحياة بشكل عام، ومظاهر الحياة الأسرية والعلاقات بين أفرادها، ومكانة كل واحد منهم، خاصة فيما تعلق بعلاقة الرجل بالمرأة، وعلاقة الأطفال بالوالدين، إضافة إلى باقي المعايير الدينية والأخلاقية. ولو أنه في بعض الأحيان يبدو على النساء قدرات أكبر للتوافق مع المجتمع منه عند الرجال، بينما يظهر العكس بينهم ولكن نادرا. وفيما يلي سنعرض أهم المظاهر السيكوباتولوجية المرتبطة بالهجرة والتي يمكن استخلاصها من نتائج

كل هذه الدراسات وغيرها، ونذكر من هذه الاضطرابات:

1.7. اضطراب الشخصية:

إن الفجوات في التوافق مع المجتمع والحفاظ على الانتماء دليل على سوء التوافق النفسي. كما أن المكانة الاجتماعية التي بإمكان المهاجر الحصول عليها، قد تكون سببا في زعزعة توازنه النفسي. إذ أن بعض المهاجرين السريين كانوا أصحاب مكانة اجتماعية محترمة في بلدانهم (مسؤولين، أطباء، أساتذة...)، فيجدون أنفسهم بعد المغامرة مرميون في مراكز الاستقبال مع المهمشين، والمدمنين، والمصابين بشتى أنواع الاضطرابات العقلية. وفي أحسن الأحوال، وإذا تحصل على عمل، فهو عمل يعافه الفرنسيون، وأصحاب الوثائق من المهاجرين، مع إجباره على أن يتنازل عن أبسط حقوقه، كالحصول على الأجر القاعدي القانوني، أو عقد عمل يحمي حقوقه. "إن هذه الإشكالية المطروحة لها علاقة مع سيكولوجية التجنب، والتي تمتلك وظيفة تدعيم نمط السلوك الهروبي. فالسلوك الهروبي لدى المصاب بالرهاب مثلا يدعم لديه تأصل السلوك التجنبي، لأنه يعتقد بأن المخاطر المحدقة به، يمكنه تجنبها بفضل هذا السلوك. والسلوك الهروبي لدى المهاجر السري الفاشل تصبح تدعمه وتغرسه ظروف الحياة اليومية". (<https://geiroom.net/archives/73956>)

إن المعايير التي وضعها DSM4 لتحديد الشخصية الهروبية أو الاجتنابية، يمكنها مساعدتنا على الكشف عن أهم مظاهر هذا النوع من الشخصية انطلاقا من مميزاتها وخصائصها الواردة في الدليل التشخيصي الأمريكي للاضطرابات النفسية والعقلية، ومطابقته مع السلوك التجنبي لدى المهاجر غير الشرعي. ومن بين هذه الخصائص أنه شخص يتجنب كل نشاط اجتماعي أو مهني يمكن أن يعرضه للانتقادات أو الاستنكار أو النبذ. وأيضا شعوره بالدونية اتجاه الآخرين. إن مثل هذه السلوكيات لا تأتي بعفوية ودون سابق تحضير، وإنما هي سلوكيات ناتجة من عملية نفسية مغروسة في زمن ديمومي (أي غير متقطع). لأن المهاجر السري دخل في مشوار حيوي لذاته ولأهله. مشوار كان فيه الاستثمار النفسي والعقلي والعاطفي في أوج مستواه.

2.7. رهاب العودة:

ويمكن أن نطلق صفة المغامر الناجح على المهاجر غير الشرعي الذي قد يتكيف تكيفا مقبولا، بينما قد يدخل مهاجر آخر في دوامة المغامر الفاشل الذي يظل يعيش ضمن تناقض الرغبات، فبقاؤه في بلد لا يريده يفرض عليه التسليم بحقيقة مرة، وهي الاكتفاء بعيش البؤس وحياة التقشف والتهرب والسرية، ورغبة في العودة، تفرض عليه التسليم بحقيقة أخرى أشد مرارة، وهي الاعتراف بالفشل أمام الأهل والأصدقاء، وهو أمر غير مقبول لدى شخص كبرت "أنه"، وتشكلت شخصيته على أسس البحث عن النجاح والمغامرة، وجرأة البحث عن التغيير، وتكونت صورته الاجتماعية على أساس حتمية النجاح. فالبقاء مرادف للبؤس والذلة والتهرب، والبحث المتواصل عن الزوايا المظلمة، والهروب من زوايا الضوء، حتى لا تدركه بصيرة ولا تراه الأعين. والعودة مرادف للاعتراف بالفشل والانتكاس، والاكتفاء بالشعور الدائم بالإحباط... "إن هذه المشاعر الأليمة والعذاب النفسي والاجتماعي المتواصل لدى المهاجر السري، تؤثر على بنائه النفسي، وتزعزع كل الأسس التي تركز عليها شخصيته، ويتكون لديه نمط سلوكي مضمونه التهرب والتجنب: تهرب علائقي (لا يبني علاقته إلا مع من هم في وضعيته، ويتحاشى كل معارفه، وكل ما في إمكانه أن يعكس لهم صورته، ويحيي معهم أشباح الماضي، ويشعل أنوارا تفضح حقيقته الآتية). إن هذا النمط السلوكي الهروبي يأخذ بعده السيكولوجي المرضي، حين يأخذ هذا

الفرد منعرجات خطيرة، توصله إلى سلوكيات الانتحار المزيّف، وذلك من خلال دخوله إلى عوالم الإدمان والكحول والدعارة والجريمة... " (<https://meemmagazine.net>)
فالكثير من المهاجرين السريين الذين لم تحالفهم ظروف الإقامة إلى الوصول إلى مرامهم، ولم تكن لديهم القوة النفسية الكافية لتحمل إحباط الفشل والعودة إلى نقطة البداية دون مال ولا شهادات، يجدون أنفسهم ضحايا لكل هذه السلوكيات والاضطرابات المرضية.
3.7. الحنين:

إن ما يظهر على السطح في أول علاقتنا مع الظاهرة، هي بروز الكثير من المظاهر النفسية التي تتفاعل وتتفاقم مع الضغوط، فتتحول إلى عوامل منتجة للشذوذ والاضطرابات. ومن هذه المظاهر "ظاهرة الحنين، والتي تتلازم مع ظاهرة الحداث كظاهرة نفسية تتموضع في حدود ما بين الشذوذ والسواء، ونعني بمصطلح "الحنين" ألم العودة، ويعود استعمال هذه الكلمة المركبة إلى عام 1688 في أعمال الطبيب السويسري الذي أستخدمها ليصف اضطراب يعاني منه جنود سويسريون، كانوا يعانون من كآبة حادة، تم شفاؤهم بمجرد عودتهم إلى أرض الوطن. لكن الأعمال الروائية فيما بعد، طغت على استعمال الكلمة، لتصبح أكثر تعبيراً على شعور نفسي منه على الاضطرابات.

فالحنين لدى المهاجر السري، يختلط فيه كثير من المظاهر العاطفية والمعرفية، وهو شبيه بما تحسه بعض الفئات الأخرى كالجيش، وبعض العمال ممن ليست لهم حرية تقرير لحظة العودة إلى أرض الوطن. فمن الناحية المعرفية، تصبح الذاكرة فضاء سيكولوجيا لمواضيع مفقودة ويستحيل استرجاعها. ويرتبط بهذا المظهر المعرفي بعد عاطفي مشحون بكل الآلام، ألم فقدان ما هو عزيز، وضياح ما هو غالي... يغطيه نوع من الشعور بتلك القدرة على تذكره والتلذذ به، في خليط من ألم الفقدان ولذة الاسترجاع والتذكر. هذا الشعور يتحول إلى دينامية توفيقية نفسية، وإلى إطار فضائي وزماني لمواجهة الشعور بالضياح ليصبح الشعور بالحنين ذو وظيفة سيكولوجية أو فيما يعرف بـ "الذاكرة الشاشة"، أو الذاكرة الحاجبة، والتي ترتبط بالحاجة إلى المحافظة على توازن الأنا المثالي. فالحنين على ارتباط وثيق بالذاكرة، وبقدرته على تحديد هويته من خلال مرجعية الماضي لديه. فمن الناحية المعرفية، ويبقى نشاط الذاكرة في هذا الإطار مرتبط بالذكريات المسترجعة، من خلال مثيرات حسية شعورية، ذات بعد زمني " (بوعون، 2013)

فبعض المأكولات والروائح تعيدنا إلى زمن فضائي مرتبط بذكرات محددة. إن الحنين قد يكون نقطة البداية في بعض الحالات، وخط توازن في حالات أخرى، مع حالات الاكتئاب السوداوي سواء في أخطر مظاهره أو في أبسطها. وهو يرتبط في الكثير من الأحيان مع حالات حداد غير منتهية، والذي يتميز خاصة باستحالة الاستغناء عن الموضوع المفقود والتنازل عنه، مع استحالة استثماره في مواضيع نفسية أخرى. فنحن هنا أمام ظاهرة توقف عملية الحداد، كعملية ضرورية للتوازن وبقاء خيط الارتباط بين الموضوع المفقود و"الأنا المثالي". فهذه العلاقة مرغوبة في حد ذاتها، وليس هناك موضوع آخر بإمكانه أن يحل محل الموضوع المفقود.

وعلى حد تعبير Geahchan، فإن ظاهرة الحنين كظاهرة نفسية، تضيف إلى الاكتئاب شعورا بفقدان جزء من "الأنا المثالي".

4.7. الجنوح:

إن أهم ما يمكن ربطه بالاضطرابات هو ما يعرف باندماج المهاجرين مع المجتمع المضيف، وهو مطلب موجه للمهاجر باعتباره حامل لثقافة وقيم ومعايير مختلفة لبلده، ويسعى للعيش في بلد آخر، فعليه أن يقوم بالعمل الاندماجي داخل هذا المجتمع المضيف، وإذا ما سلمنا بأن الاندماج لا يفرض ولا يسن بالقوانين والمراسيم، بل هو عملية نفسية اجتماعية وثقافية طويلة، تحتاج إلى مشاركة الآخرين في مشروع حياتي واحد، وقيم مشتركة، وأن يكون هناك اتفاق جماعي، ومحو للفروق بين الأشخاص. والاندماج كما يعرفه البعض هو عملية فردية، والفرد هو الذي يندمج في المجموعة وليس العكس، من أجل الحفاظ على التماسك الاجتماعي، الذي يركز على تبني الفرد لقيم ومعايير الجماعة، والعيش في نوع من التبعية السياسية والاقتصادية المتبادلة، والتي تنفع الجماعة كجماعة، وتنفع أفرادها كأفراد.

هذه الأفكار الأولية توصلنا بشكل مباشر إلى ظاهرة الجنوح كظاهرة نفسية واجتماعية. "إن ما يتفق عليه الكثير من المحللين، هو أن الجنوح ظاهرة تمس خاصة أوساط الشباب المهاجرة، وبالأخص المغاربة، رغم غياب الإحصائيات في ذلك. إن هذا التوجه نحو الجنوح لدى هذه الفئة من المهاجرين، ليس توجهها فطريا، بل هناك عوامل نفسية واجتماعية تفسره. وتكمن أولى هذه التفسيرات في أن المهاجر السري مندفع، وقريب إلى التهور، ولا يهيمه تجاوز القانون، ولا يشغل باله احترام القواعد، فالهجرة ذاتها عملية غير شرعية، فلا مكان بعدها للقانوني والشرعي في فضائه العقلي وضميره الأخلاقي". (لدمية، دس)

8. خاتمة:

لقد حاولنا في هذا المقال تسليط الضوء على مختلف أبعاد الهجرة غير الشرعية، وتعقيداتها التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية وانعكاساتها الواقعية، وما أثارته من ردود فعل لدى المهتمين بها وفي مختلف مستوياتهم ومواقعهم. فظاهرة الهجرة غير الشرعية لم تعد مقتصرة على فئة معينة، ولا على جنس معين، فكثيرا ما أصبحنا نشاهد أو نقرأ أو نسمع عن أسماء لنساء وحتى قاصرات دخلن هذا العالم. وكذلك لم تقتصر هذه الظاهرة على فئة الشباب فقط، بل حتى الأطفال والمراهقين وكبار السن أيضا، وهذا ما تؤكدته الإحصائيات والأرقام. كما أنه لم يعد الشباب البطال وحده من يحاول الهروب سرا، بل حتى العاملين والموظفين، ووصل الأمر حتى إلى الإطارات السامية في الدولة، بحكم أن طبيعة العمل لا تتلاءم مع قيمة الأجر المدفوع في الجزائر مثلا، وذلك بالموازاة مع قيمة الأجور المقدمة من طرف دول أخرى (قيمة العملة الصعبة مقارنة بالدينار الجزائري).

كما حاولنا التركيز على استجلاء الآثار النفسية والعقلية التي تنتجها ظاهرة الهجرة غير الشرعية على أصحابها المتواجدين بالغربة، وذلك من حيث اعتبار هذه الآثار رد فعل للتغيرات المفاجئة في حياة هؤلاء من جهة، ثم رد فعل ناتج عن غياب الشعور بالأمن لديهم من جهة ثانية، وهذا على الرغم من الوسائل الوقائية

وأساليب العناية النفسية التي يتم توفيرها لهم في المراكز التي تخصص لاستقبالهم، وتلك التي يتم توفيرها لهم داخل الجمعيات التي تدافع عنهم.

وفي الأخير، يمكننا القول بأن ظاهرة الهجرة غير الشرعية هي ظاهرة عالمية متأصلة مع الوجود الإنساني، وتداعياتها وصلت إلى جميع فئات المجتمع، من شباب وشابات وأطفال وحتى شيوخ، مما أثرت على العديد من نواحي الحياة لدى المهاجر، وبالأخص على الجانب الصحي والاجتماعي والنفسي بشكل خاص. لذلك فإن هذه الظاهرة بدأت تتعقد، ومن أجل مكافحتها يجب تكافل كل الجهود الدولية الفاعلة.

- قائمة المراجع:

- الطلحي، عادل، (2010). الشباب وظاهرة الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا. ورقة بحث مقدمة في مؤتمر الشباب والهجرة: ليبيا. بوعون، عدوان. (2013). الهجرة غير الشرعية قراءة أنثروبولوجية سيكوباتولوجية. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 13. باتنة.
- ساعدي، رشيد. (2012). واقع الهجرة غير الشرعية في الجزائر. أطروحة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية: جامعة بسكرة.
- سحنون، أم الخير. (د.س.). الهجرة غير الشرعية لدى الشباب الجزائري: الأسباب والعوامل. أطروحة لنيل شهادة ماجستير. جامعة خميس مليانة.
- لممية، فريجة. (د.س.). الهجرة غير الشرعية: دراسة في الحركات السببية المنتجة للظاهرة. مجلة الاجتهاد القضائي، العدد 08. بسكرة.

المراجع الالكترونية:

- مقال الكتروني (نوفمبر 2017): الجزائر الخامسة في ترتيب الجنسيات الأكثر إقبالا على الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا. على الرابط:
- <https://www.tsa-algerie.com>
- مقال الكتروني لـ عدوان يوسف (2013): الهجرة غير الشرعية، قراءة أنثروبولوجية، فرنسا نموذجاً. على الرابط:
- <https://www.researchgate.net/publication/279217938>
- مقال الكتروني لصاحبه عزام أمين (يناير 2017): الهجرة وأثارها النفسية. على الرابط:
- <https://geiroon.net/archives/73956>
- مقال الكتروني لـ لحياني عثمان (يناير 2018): الجزائر، اعتقال أكثر من 3 آلاف مهاجر سري والحكومة تلجأ للفتوى. على الرابط:
- <https://www.alaraby.co.uk/society/2018/1/29>
- مقال الكتروني لـ لحياني عثمان (فيفري 2018): هجرة الجزائريات... البحر يخطف أرواح النساء أيضاً. على الرابط:
- <https://www.alaraby.co.uk/society>
- مقال الكتروني لصاحبه نادية محمد (نوفمبر 2017): خبايا الهجرة السرية للسيدات في مصر. على الرابط:
- <https://meemmagazine.net>
- مقال الكتروني لـ صبح جمال (أوت 2016): عن علاقة الهجرة واللجوء بالعنف والاضطرابات النفسية. على:
- <https://www.assakina.com/news/news1/91591.html>